جامعة السلطان قابوس
مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

Sultan Qaboos University
Journal of Arts & Social Sciences

الرواية التاريخية
نوايا الكتابة ... ومقاصد التخيل ... في رواية «القرصان» لعبد العزيز آل محمود

رامي نزيه حفيظ أبو شهاب

محاضر
كلية الآداب
قسم اللغة العربية
جامعة قطر
rabushehab@qu.edu.qa

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٠/٠٥/٢٤
تاريخ القبول للنشر: ٢٠٢١/٠٢/٠٢

الرواية التاريخية نوايا الكتابة ... ومقاصد التخيل ... في رواية «القرصان» لعبد العزيز آل محمود

رامي نزيه حفيظ أبو شهاب

الملخص

يهدف هذا البحثُ إلى الإجابةِ عن فرضيّة تتصلُ بمقولة الرّواية التاريخيّة، وتقاطعها مع التّاريخ، ولكن في سياق المرجعية، والفضاء الذي احتضنَ البنية السّردية التي تحفل بمحمولاتٍ مكانيةٍ وزمانية، تتعالق بالحدث التاريخي كما الشخصية التاريخية، وما يكمنُ فيهما من جدليّة التّحقق في تكوينِ المرجعيّة التاريخيّة المتمثلة في شخصيّة «أرحمة بن جابر» كما عكستها رواية «القرصان» للرّوائي القطري عبد العزيز آل محمود التي تتصلُ (تخيّلاً) بجُملة من الأحداث في منطقة الخليج العربي، وذلك عبر سردية تنهض على بناء متخيّل تاريخي يستندُ لحقبةٍ زمنية مُعينة، بدت - في كثير من الأحيان - تفاصيلها جزءاً من تاريخ المنطقة، والإرث الاستعماري المُتمثل بحضور الإمبراطوريات، مما يَشي بنموذج سرديّ جدليّ يحتفي بالكثير من المقاصد والغايات التي من أجلها وُجدت الرّواية التّاريخية، ومن هنا، فإننا نستندُ إلى مقاربةٍ تتصل بالدَّرس الثقافي، ونظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي بهدف قراءة النموذج النّسقي للسرد، وما يكمنُ خلفه من نوايا، ومستويات دلالية.

الكلمات المفتاحية: القرصان، الرواية، التاريخ، الخليج، السرد، ما بعد الكولونيالية.

Historical Novel Intentions of Writing…Purpose of Imagination, In the Novel "Al-Qursan'' Abdulaziz Al Mahmoud

Rami Nazieh Hafeth Abu Shehab

Abstract:

This paper aims to answer a hypothesis related to a historical novel and its intersection with history. However, in the context of origin, the space that embraced the narrative structure, and the space relates to spatial and temporal loads related to the event, and the underlying dialectic of verification in the formation of the historical reference, represented in character "Arhama bin Jaber",” as reflected in the novel“Al-Qursan”by the Qatari novelist Abdul Aziz Al Mahmoud. The novel relates to several events in the Arab Gulf region and attempts to build a historical visualization based on a specific period that appeared in its context as part of the region's history. The colonial legacy is represented by the presence of empires, which indicates a dialectical narrative model that celebrates many of the purposes and goals for which the historical narration was found. From here, we are based on an approach related to cultural and postcolonialism to analyse the coordinate model of work and its underlying purposes in indicative levels.

Keywords: The pirate; Novel; History; The Gulf; Narration; Post-colonialism

المقدمة:

تكتسب الرواية التاريخية قدراً كبيراً من الأهمية كونها تسعى إلى تمثّل الحدث التاريخي في سياق متخيل يعيد موضعة الحدث بحيث يحتمل قراءة أو تفسيراً جديداً للحدث عينه، لا من وجهة نظر المؤرخين الذين تتملكهم مقاصد صوغ التاريخ من وجهة نظر تعتمد صيغة مرجعية متعالية، إنما القراءة المستعادة تستهدف توجيه الأنظار من أجل تمكين رؤية أيديولوجية ما، ولا سيما إذا كان الحدث يحتمل قدراً كبيراً من التباين في الحكم عليه، حيث يتخذ هذا الأمر قيمة مضاعفة حين نعمل على الحكم على شخصية أو حدث تبعاً لتصورات المؤرخين التي ربما تحيف على الرؤى الأخرى، وهكذا يبقى التاريخ في تمثلاته السردية عرضة للكثير من التأويل، ولا سيما عبر محاولة الكشف عن جملة من الأنساق أو المضمرات التي تمارس دوراً مغايراً للكتابة التاريخية، ومن هنا، يهدف هذا البحث إلى تمكين نموذج قرائي يتوسل المقاربة الثقافية، ورافدها المتثمل بالتاريخانية الجديدة التي تسعى إلى الكشف عن علائق جديدة أضمرها المؤرخ، أو الأرشيف التاريخي، إذ إن الرواية تعيد موضعة الحدث والشخصيات كما فضاءات المكان في سياقات جديدة تتكئ على نموذج المتخيل كون الأخير يحتمل قدراً من الاتساع بداعي قربه من تجسيد وعي ذلك الزمن بشخوصه، وما يستتر من وعيها، فضلاً عن تقاطعات أضمرها كتابة التاريخ، فالمتخيل التاريخي يتوسل فضاء جمالياً يعمد إلى التكوين الحكائي ضمن خلفية تاريخية ما، ولكنه لا يتوقف بهدف التوثيق إنما يتوسل تحليل الدوافع والحوافز التي أوجدت هذا الفعل، وما كان مسكوتاً عنه.

ولعل هذا ما تؤكده تعريفات الدرس الثقافي والتاريخانية الجديدة التي تتأمل الأحداث عينها، ومع أنها تستعين بأدوات تحليل الاستعارة، والخيال، والكناية، غير أنها تؤكد على اكتناه العلاقة الجديدة التي يمكن أن تنشأ بين الماضي والحاضر، علاوة على تكوين صورة أو رؤية جديدة للعالم بعيداً عن أية آثار للسلطة، أو المتعاليات الثقافية المهيمنة (Guerin and Others, 2005: 283).

نخلص إلى أن موجّهات هذا البحث تسعى إلى مقاربة تتصل بتحليل المضمر الثقافي، والسياقات التاريخية في ضوء فهم جديد لرواية حملت عنوانا لافتاً يتصل بشخصية تاريخية إشكالية، بيد أنها تسعى أيضاً إلى تقديم مستوى تنظيري لمفهوم الرواية التاريخية ضمن طرح جملة من الأسئلة التي تتعلق بمفهوم الرواية التاريخية، وإشكاليتها، كما نطرح أسئلة تتعلق بمدى قدرة الرواية التاريخية على إعادة صوغ التاريخ ضمن مفهوم مغاير للنموذج التوثيقي الشائع، أو ذاك الذي أنتجته الكتب التاريخية.

في حين أن البحث يسعى أيضاً إلى تحليل الحدث التاريخي، وتموضع الشخصية ضمن إطار زمني قد بدا للكثيرين مشحوناً بالتنازع المحلي، أو الإقليمي؛ بالتوازي مع حضور القيم الإمبراطورية الاستعمارية، وما كان لها من أثر في توجيه الأحداث التاريخية تبعاً لمصلحة تلك القوى، وهذا ما يدفعنا للتوقف بغية تأمل طيف من نماذج التمثيل الثقافي كما برزت في الخطابات ما بعد الكولونيالية ضمن أحد المحاور التي قامت عليها هذه الدراسة، مع التأكيد على أن المقاربة الفنية التي تتمثل بتحليل التقنيات ستكون في مجال محدود، مع التأكيد على اختبار البعض منها، وتحديداً الطابع الوظيفي المتصل بقدرة الرواية على الاستعانة بالنماذج التخيلية والجمالية والرمزية في تحديد الخطاب، ولكن مع الحرص على ألا يطغى ذلك على النوايا البحثية القائمة على المقاربة الثقافية التاريخية التي تعدّ مركز الدراسة، ومقصدها الأساس.

الرواية التاريخية، السّند والمرجعية:

يشيرُ «جورج لوكاش» في كتابه «الرّواية التّاريخيّة» إلى الحس التّاريخي في السّرد، أو الرّواية، ويُقصد به تجاوز البعد الخارجي القائم على عوامل خارجيّة لا تتصلُ بإشكالية التّاريخ، فالرواية التاريخية ليست سلسلة من الأسماء أو نماذج شكلية تنهض على الأزياء، وغيرها من مُتعلقات الماضي، إنما تكمنُ قيمتها في كونها تعكسُ فعل التّحول، وحمولاته الفكرية أو الأيدولوجيّة. ولعلَ هذا يتحدد بفهم التّاريخ بوصفه عمليةً مستمرةً أو باعتباره الشّرط الملموس المُسبق للحاضر (لوكاش، ١٩٨٦: ١٢). وإذا ما نظرنا من ناحية إجرائيّة لمفهوم الرّواية التاريخية؛ بمعنى آخر من ناحية التّعيين الاصطلاحي فإن قاموس «أكسفورد للمصطلحات الأدبية» يرى بأنها: «الرّواية التي تتحدد أحداثها في فترة زمنية أو تاريخية تسبق زمن الكتابة على الأقل بحدود جيل أو جيلين، وفي بعض الأحيان قبل عدة قرون» (Baldick, 2001: 114) ولعل هذا التعريف يذهب نحو الإشارة إلى الفعل الخارجي للكتابة التاريخية بوصفها عاملاً لتمثيل الحقبة التاريخية، غير أنّ حقيقتها تتعين من خلال تركيزها على تصوير الصراع، ولا سيما في طابعه الذي يظهر في عدة مستويات، منها: الاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، بالإضافة إلى الثّقافي، وتحديداً في حقبة زمنية معنية محددة (Baldick, 2001: 114).

إنّ المفاهيم المُبسطة للرّواية التاريخية تجعلُ منها مظهراً للتاريخ، أو أنها تستهدف استعادة التاريخ في إطار حكائي أو قصصي، ربما لا يعدم هذا التّوجه بعض الدّوافع التعليمية، أو ربما يتقصّد حملَ المتعة للمتلقي، غير أنّ هذا المفهوم على الرّغم من توفّره في الكتابات الأولى للرواية التّاريخية؛ إلا أنه شرع يشهد الكثير من التّعديلات في نوايا الكتابة ومقاصدها، حيث بدأت الرواية التاريخية تعمد إلى منظور ما يعكس رؤية تتصل بالعالم، ولكن الأهم الزمن من أجل تقديم جملة من التّفسيرات لمعنى الوجود على الرغم من تاريخيته.

إنّ مفهوم المرجعية التاريخية من ناحية تكوين الفعل السّردي يعدّ مركز التّمكين للدلالات التي تُؤطر في سياق تاريخي بُغية تمكين مقولة تبدو عابرة في الزمن، وهي تستندُ إلى بناء أيديولوجي معيّن، وهي بذلك تحاكي التاريخ في إشاراته للمعاصر، أو محاولة تفسيره. فالتاريخ يبدو صيغة تهتم بمظهر السرد، غير أن مزالق التاريخ تبدو أقرب إلى مخاطر تقنية وأيدولوجية، حيث تبدو بعض الروايات، وقد استندت إلى التاريخ في تكوينها السّردي، غير أنّ هذا يبدو – حقيقة – أحد أهم أسباب التراجع الفني للكثير من الرّوايات التي اتخذت من التاريخ مرجعياتها الأساسية، فالتاريخ

بما تحتمله الرواية من أحداث وشخصيات يسعى لأن يؤدي وظيفته الأيدولوجية، وأن يكون التاريخ جزءاً عضوياً من مقولة الفعل السّردي، لا مجرد حادثة تستند إلى مرجعيّة تقع في الماضي؛ ولهذا يمكن القول إن التاريخ في إشكالياته العميقة يحتفي بالأسئلة، في حين أنه يمضي إلى حدود من الفعل التأويلي الذي لا يمكن لنا إلا أنْ نتعامل معه بحذرٍ شديد، كونه –ربما- يقودنا إلى الكثير من المغالطات في قراءة التاريخ، بالتّضافر مع محاولة جعله صيغة لعكس صيغ التحول، وتفسير الحادثة في إطارها السّردي المُتخيّل.

وانطلاقاً من السّياق السّابق، فإن عبد الله إبراهيم في معرض محاولته لإقامة مفاهيم جديدة لهذا النوع من الرواية يدعو إلى أن يكون التاريخ بناء متخيّلاً، فمفهوم «التّخيل التّاريخي» يتحدد بأنه: «المادة التاريخية المتشكلة بواسطة السرد، وقد انقطعت عن وظيفتها التوثيقية والوصفية، فأصبحت تؤدي وظيفة جمالية ورمزية من منطلق بأن التخيل التاريخي لا يحيل إلى حقائق الماضي، ولا يقررها، ولا يروج لها، إنما يستوحيها بوصفها ركائز مفسرة لأحداثه» (إبراهيم،٢٠١١: ٥). وبناء على ما سبق، فإن الوظيفتين الرمزية والجمالية تبدوان من أهم مقتضيات الكتابة السردية التاريخية التي تسعى لامتلاك منظورها الخاص في تفسير الحادثة التاريخية دون أن تحيفَ على البنى الجمالية، أو القيم الفنية، إذ تسعى لأن تقيم مقاصدها في بنى رمزية تحتفي بظلال التّأويل التي تتيحُ عدة مستويات تتعلق بقراءة الحدث التّاريخي القائم في المجال السردي المتخيل؛ مما يعني بأن الرواية ستبقى في حدود التخيّل، ولا يمكن لها أن تحتمل قدراً من المسؤولية عن الحكم التاريخي، إنما هي تنقلهُ إلى مجال آخر، وهذا وجهة نظري يعدّ شديد الاختلاف من حيث التأويل، فهي تبقي على الحدث، ولكنها تسعى لأن تضيف له صيغتها الخاصة، وقيمها التأويلية التي تستند إلى قيم جديدة، فالرواية جنس (غير يقيني) كما يقول: (ستالوني، ٢٠١٤: ١٢٠).

ويمكن القول بإننا نتوافق من جهة، ونختلف من جهة أخرى مع مقولة «إيف ستالوني»، ولا سيّما بخصوص مفهوم الرّواية التاريخية التي يرى بأنها: «تأخذ التاريخ كما هو فتنفخ الروح في أعلام تاريخية في حياتها اليومية وفي سلوكها» (ستالوني، ٢٠١٤: ١٣٠). ولعل هذا يأتي من أن الرواية التاريخية على الرغم من أنها تسعى لأن تستند إلى واقعية التحقق عبر استحضار شخصية تاريخية، وتنفخ الروح فيها، غير أنها تلجأ إلى عمليات من الحذف والزيادة، أو لعلها تضيفُ أبعاداً جديدة بُغية تمكين الغاية المقصديّة أو التأويلية لمتتالية البناء الدلالي للمحكية التاريخية. فرواية «القرصان» للكاتب القطري عبد العزيز آل محمود تتضمن شكل الرّواية التاريخية، وغايتها التي تتحدد ضمن عدد من المقاصد التي تقع في سياق جدلي، وعلى ما يبدو، فإنها تتنازع فيما بينها، أو لعلها في بعض الأحيان تتكامل، فالمؤلف الذي ينطلق من وثائق تاريخية عثر عليها في عدد من المواقع والمكتبات، شكّلت بالنسبة إليه نموذجاً من اكتشاف الذات التاريخية؛ ولهذا قرر أن يعيد تقديم حدث، في حقبة زمنية محددة من خلال بؤرة سردية تتمثل بشخصية تاريخية في قالب تخيلي. وهذا ما يدفعنا منهجياً إلى اختبار مقولة صيغة الرواية التاريخية التي يرى الناقد عبد الله إبراهيم بأنها الرواية (التخيل التاريخي) التي تنطوي على إشكاليتين، هما: الحدث التاريخي، وما يمكن أن يتلبّسه من فعل سردي، في حين أنّ الإشكالية الثانية تتحدد بالهوية السّردية التي تحدد معالم النوايا السردية، وهكذا، فإن للرواية التاريخية مرجعيتين، هما:

الأولى: مرجعية الحدث التاريخي.

الثانية: مرجعية تخيلية ترتبط بالحدث الروائي. (إبراهيم، ٢٠١١: ٦-٧).

ومن هنا، ينبغي أن نتساءل عن دوافع الروائي «عبد العزيز آل محمود» لكتابة الرواية التاريخية؟ وأيهما ربما يتقدم على الآخر؟ ومن هنا، ينبغي أن نحلل مواقع التأثير الدلالي، بالإضافة إلى مجموعة من الحوافز أو الأهداف؟

يذكر «جورج لوكاش» بأن الرواية التاريخية لها أهداف أو مقاصد متعددة، منها على سبيل المثال لا الحصر، توصيل رسالة ما للقارئ، أو تضمين أيدولوجية معينة، أو لإعادة نشر تاريخ، أو حقبة تاريخية معينة، وبعثها للحياة مرة أخرى، وهو هنا يتحدث في معرض تحليله للرواية التاريخية، وتقاطعها مع الثّورة الفرنسية من حيث دور الرواية في عمليات التفسير للتاريخ بغية اكتشاف عدة حقائق أو علاقات جديدة، ولكن ضمن صيغ تحوّل المجتمع (لوكاش، ١٩٨٦: ١٣)، وهذا ما نستنتجه في نهج الرّواية التاريخيّة السّردية على طول امتداد سرديته التاريخيّة، فمن مميزات هذا النهج تتمثل بالعودة إلى فترة تتميز بثراء الأحداث التاريخية، وهي غالباً ما تتميز بوجود نزاعات وصراعات أو تحول تاريخي، بهدف نقل بعض التفاصيل عن الماضي، وإعادة اكتناه ما يكمن فيها من منظورات تتصل بجدلية التاريخ، ولكن الأهم من ذلك تفسيره، أو استنطاق الأنساق المضمرة التي تكمن فيه. وهذا يقترب من نموذج المقاربة على ضوء القراءة الجديدة للتاريخ التي تعطي اهتماماً أكبر للسياقات أو الظّروف الثقافية، وأثر الحادثة التّاريخية على حساب المرجعية التاريخية الجامدة (Abrams, 1999: 182).

لا شك بأن كافة العوامل السابقة قد شكلت محفّزات للكتابة التّاريخية السّردية، فهي إلى حد ما تبحث في مركز مكاني وزمني متقارب كما في رواية «القرصان» التي تنهض على حبكة تتمحور حول شخصية مركزيّة، وبناء عليه فهل يمكن أن نعدّ هذه الرواية رواية «سيرة»، ونعني سيرة شخصية «أرحمة بن جابر»، أم ينبغي أن نعدها متخيلاً سيرياً لحقبة زمنية ما؟

الشخصية: جدلية التكوين

لا شك بأن ثمة أهدافاً أو مسوغات للكتابة التاريخية، فهذا النزوع نحو هذا النمط من الكتابة أو شيوعه يعود إلى رغبة الروائيين بمجابهة الحاضر بشخصيات نموذجية، أو ذات مثل عليا أو إنسانية كما يوضح «جورج لوكاش»، في حين يمكن أن نستأنس بآرائه حول التّشبث بالحقائق المتعلقة بحياة رجل عظيم في المتن

السردي التاريخي الذي عادة ما يخبرنا في أحسن الحالات عن المناسبة الخاصة التي أنجز فيها شيئاً عظيماً إلا أنها لن تعطينا أبدا السياق الفعلي، وهذا ما يجعل من مقاربة تموضع شخصية «أرحمة بن جابر» ضمن هذا البناء الضيق، ولا سيما محاولات إصدار أحكام حول القيمة الحقيقية لهذا الحضور السردي لشخصية تتصل بزمن يختلف عن زمننا؛ مما يعني شيئاً من الصّعوبة على مستوى الإجراء أو التحقق على مستوى التثبّت التاريخي.

يلاحظ بأن القيمة الفعلية للمتن السّردي في رواية «عبد العزيز آل محمود» تستند إلى مدخل يبدو أقرب إلى الجدلي، فهو يبدأ بافتتاحية سردية تتصل بالقوة المهيمنة، أو السلطة الإمبراطورية التي تقيم وجودها الرمزي أو الفعلي عبر أسطولها القوي الذي يجوب بحار الكرة الأرضية للسّيطرة على مواقع حيوية تغذي الإمبراطورية، وبذلك فإن هذا لا يمكن أن يعدّ نموذجاً بريئاً من التمثيل السّردي للتكوين الإمبراطوري في منطقة الخليج العربي. فالرواية في فصلها الأول تخرج علينا بعنوان فرعي، يتمثل بميناء «بليمورث» جنوب إنجلترا ليكون نقطة الانطلاق للعالم الآخر، أو ذلك الذي يقع خلف البحار، وكأن هذا الفعل من التمركز يشي بأن ثمة حدوداً بعيدة بين موانئ الخليج مقابل موانئ إنجلترا، غير أنّ ثمة مسوغات لهذا التقارب كونه يحيل إلى فضاء أيديولوجي معين، وإلى علاقة مسكونة بذاكرة التّصادم، أو المواجهة بين مفاهيم تختلف على قراءة التاريخ، وتموضعه في الوعي الجمعي، ولعل هذا يتضح من خلال المتن الآتي من الرواية:

«فمدينتهم على مدى التاريخ الذي يعرفونه كانت ميناءً مهماً للحكومة البريطانية، منها تنطلق السفن إلى أرجاء المعمورة، وإليها تعود محملة بالبضائع والغرائب، وكان كبار الضباط وعوائلهم ومرافقوهم يتم تمييزهم من لباسهم وعرباتهم وسوء تصرفهم في طرقات المدينة أحياناً» (آل محمود، ٢٠١١: ٦).

يرى «محمد عبد الرحيم كافود» في معرض تقديمة لكتاب أحمد عبد الملك «اتجاهات الرواية القطرية» بأن ثمة إشكالية واضحة تتعلق بهذه الشخصية، مثل الموقف القيمي الذي يحاول الكاتب أن يمثله نصياً وتخيّلاً، وهذا لا يقتصر على الدلالة الاسمية للقب (القرصان)، إنما يتجاوز ذلك إلى ما يتّصل بالتّوصيف السّردي من حيث البيانات السردية التي يرى بأنها تستند إلى الوثائق الأجنبية، في حين أن الأفعال أو المواقف التي يتبناها عبد العزيز آل محمود تبدو مضطربة، فكافود يجزم بأن الرواية لا تتبنى موقفاً واضحاً، فعنوان الرواية يتنافى مع الأهداف التي يسعى الكاتب إليها من كتابة الرواية ، والتي نحاول أن نبحث فيها.

لا شك بأن الشّخصية في الرواية ذات طبيعة إشكالية، أي أن القيمة هنا للشّخصية لا للحدث، ويمكن القول بأنها تتقدم على الأفعال السردية، فالشخصية تعدّ بؤرة العمل السردي على مستوى التكوين الدلالي، فالرواية في مجملها أحداث تتصل بإعدادات أيدولوجية معينة يشيّدها البناء السردي، وفضائه الأيديولوجي، وهي ما يجعلها في مجال من التوتر بغية الاطمئنان للغايات والمقاصد التي ترغب في أن تحيلها للقارئ كي يمارس عملية تلقيه في مجال حر من التأويل، أو ربما التّحقق من خلاصات لمواقف الشخصية المحورية، وهذا ربما دفع محمد عبد الرحيم كافود إلى تلمّس هذه الإشكالية في الرواية، ولعلها كانت غاية بحد ذاتها، أي أن يكون النص في حدود المتتالية الجدلية فيما يتعلق بحسم الإرجاء القيمي المتصل بالشخصية، أو الحقبة الزمنية، بما في ذلك الأحداث، وشبكة العلاقات التي تتصل بصراع بين عدة أطراف؛ البعض منها من خارج المنطقة، في حين أن الباقي يعد جزءاً بنيوياً من تاريخ المنطقة، وذاكرتها، وإرثها، والذي ما زال عرضة لإعادة السرد، وتقبل وجهات نظر جديدة.

لا بد من الإشارة إلى أن الشّخصية السردية «أرحمة بن جابر» تُحيل إلى مرجعية واقعية حقيقية حيث يذكر أحمد عبد الملك في كتابه «الرواية القطرية : قراءة في الاتجاهات» بأن هذه الشّخصية عبارة عن «شخصية حقيقية، وليست خيالية، حيث لعبت هذه الشخصية دوراً واضحاً في التّصدي للسفن الأجنبية، بالإضافة إلى مشاركة «أرحمة» في الحروب الداخلية أو الأهلية التي كانت تقع في تلك الفترة بين عدد من القبائل، مع الإشارة إلى خصومه في البحرين، علاوة على انخراطه في عدد من التّحالفات السياسية، فضلاً عن حربه ضد البريطانيين، وغير ذلك من التّجاذبات السّياسية والذاتية والاقتصادية، في حين أن لقب (القرصان) قد جاء من وضع الإنجليز(عبد الملك، ٢٠١٦: ١٥٧).

في رواية «القرصان» تبدو الأيدولوجية غير محددة الملامح في المنظور الخاص بالشخصية التي تتعرض لقراءة تاريخية متباينة من حيث الحكم، فثمة علاقة متوترة مع أبناء القبيلة الواحدة، وهي تشكل مرجعية حقيقية، ولكن ثمة علاقات تستند إلى تنازع مع المساعي البريطاني للسيطرة، وتسهيل مهمة «شركة الهند الشرقية»، وهنا نقع على اختلاف في تحديد سمات شخصية «أرحمة بن جابر»، فالروائي في منظوره السردي القائم على قيم التخيل، وكما يظهر في المتن يرى بأن الشّخصية تستند إلى تمثيلات متناقضة، أو جدلية لا محسومة، فهو فارس، وقرصان، وربما قاطع طريق، وربما يكون عميلاً للبريطانيين، أو شخصاً يسعى إلى مصالحه الذاتية. وهكذا نستنتج، بأن المتخيل السردي ينطوي على شخصية مليئة بالتناقضات والمواقف الأيدولوجيات من حيث فهم التنازع، وعلاقته المتوترة مع المستعمرين، وقبيلته، كما القبائل الأخرى، فهو أقرب إلى شخصية الثائر على قيم مجتمعه، أو عصره، فهل يمكن أن يعدّ بطلا إشكالياً على الرغم من سمة القرصان؟ وهل يبحث أرحمة عن قيم نبيلة في عالم منحط؟ ربما هذا المستوى من التأويل المبني على تساؤلات تبرر مسالك الشخصية، وجدليتها من حيث إيمانها بالقوة، والبطش، ما يعني بأنه يلجأ إلى لغة ذلك الزمن، أو اللغة التي تسود في عصر لا يقوم إلا على القوة والمصالح، وفي بعض الأحيان الخيانة.

تبدو شخصية «أرحمة بن جابر» واقعة في جملة من تجاذبات التأويل، فهل يمكن أن نعده قائداً عسكرياً يؤمن بموقف واضح؟ أم هو مجرد رجل يبحث عن مصالحه الذاتية، أو مجده الخاص؟ ولعل هذا ما يجعل من الحقيقة التاريخية في المتن السردي أقرب إلى تكهنات لا محسومة، إنما هي تمارس دوراً لا يمكن إنكاره في

تكوين اللايقنية أو عدم التعيين (الدلالي) حول الحكم على هذه الشخصية المركزية في الرواية، ولا سيما من حيث التمكين القيمي لتكوين هذه الشخصية الجدلية، فالرواية تنزع نحو هذا البناء لرجل امتدت سمعته من الخط الملاحي الذي يمتد من «الهند» إلى «البصرة»، بالإضافة إلى منطقتي «أب» و«شهر» وصولاً إلى «مدغشقر» حيث جاء:

«هذا الشيخ الستيني الذي لا يعرف أحد أين مستقره؛ فمنهم من يقول إنه يقيم في قلعة خاصة به في الدمام على الساحل العربي من الخليج، ومنهم من يقول إن له مخبأ خاصاً على الساحل القطري، وبعضهم يقول إنه عقد حلفاً مع القواسم، وله منزل وزوجه، ولكن كل ذلك محض إشاعات لم يتأكد منها» (آل محمود، ٢٠١١: ٢٠).

وفي موضع آخر نقرأ شيئاً من المحاولات التي تفرغ التعيين الدلالي: «كانت سيرة أرحمة بن جابر عبارة عن أقاويل يتناقلها البحارة، وهم يتناولون الشاي في هدأة الليل، يصممون هذه السيرة كما يريدون، وكما يرغبون، ويخلطون الحقيقة بالخيال، فبقيت هذه السيرة المشوهة، والقصص الغريبة مرافقة له، ولم يكلف أرحمة نفسه بتصحيحها، بل أبقاها تتحرك معه أينما ذهب، فهي تضفي عليه نوعاً من المهابة التي يحتاج إليه في عمله» (آل محمود، ٢٠١١: ٢٠).

التكوين السردي، ولا يقينية المرجعية:

يُلاحظ بأن المتن السردي في تكوينه المرجعي يحتفي بصيغ متشككة، لا وثوقية، على الرغم من كونها تنهض على مصدر تاريخي، ولكن الرواية في لعبتها الداخلية القائمة على البناء السردي تسعى لأن تجعل تموضعها في بناء المقصد قائماً في اللايقين، وأن تمضي بنا إلى محاولة تكوين تصوّراتنا عن الشخصية في حدود قراءتنا لها في سياق الرواية، ولا سيما التاريخ، كوننا لا نملك كافة الوقائع عن حقيقة ما جرى، أو ماهية الشخصية، وهكذا فإننا ربما أمام مستويين من هذا النزوع الجدلي في نفي الحقيقة. ففي المستوى الأول ثمة الشّخصية الكامنة في النص، ونواياها، ولكن ربما يكون هذا جزءاً من تكوين أو لعبة سردية يمارسها الكاتب في تشكيل رؤيته التاريخيّة لواقعة الحدث كالعالم الذي يكتب عنه، وبذلك تبقى الرواية في بناء يتحرك بين التخييل، والتاريخ، مع فتح الدعوة للقراء لإصدار الأحكام تبعاً لقراءتهم للنص المتخيل، لا التاريخ، ولكن في الآن ذاته ثمة تأكيد على نفي هذه الصّيغة، ورفض أية خلاصة أو استنتاج لأنها تسعى لأن تجعل من الرّواية مجالاً للعب أو التفكيك تبعاً لمبدأ «جاك دريدا» في قراءته للمعاني اللانهائية للنص الأدبي.

إنها رواية تحفز محاولة إقحام قيم التأويل على التاريخ ضمن لعبة ذهنية متخيلة، وهي في ذلك أقرب إلى رصد سلسلة أحداث تاريخية تتقاطع مع تفسيرات أو سلوكيات تنتهجها الشخصية المركزية تبعاً لإحداثياتها الزمنية أو التاريخية، لا انطلاقاً من وعينا، ومنظورنا الخاص، إنما القارئ هنا عليه أن يتجرد من مفاهيمه، ومنطلقاته السابقة للحكم على سلوك الشخصيات، ومواقفها أيضاً، كونها تنتمي تاريخياً إلى زمن مختلف عن زمننا، مما يشي بأنّ الرواية التاريخية لا يمكن أن تنهض إلا على هذا الجدل التاريخي، بالتضافر مع بناء مسافات من المضمر، أو المسكوت عنه لا في بنية الحدث فحسب، إنما في بنية قراءة الحدث، واستنتاج مسوغاته.

ولعل هذا ما يحيلنا إلى نموذج آخر يتصل بلقاء «أرحمة بن جابر» مع القواسم حيث، كان يحمل إحساساً برفض مفهوم قطاع الطرق، ونفيه عنهم، بل هم مجاهدون، يدافعون عن ديارهم في وجه الغزاة، ولهذا فقد رفض أرحمة التوقيع على الاتفاقية التي وافق عليها مشايخ الخليج من الإنجليز. لا شك بأنّ هذه الأسئلة تحفل بتداخل الدوافع السردية، فمنها ما يتصل بالرغبة في تسليط الضوء على حقبة زمنية معينة تبدو ضبابية في الوعي الحاضر، وربما تنطوي من جهة أخرى على موقف أيديولوجي من موقف رمزي يمثله «أرحمة» من مناخ عصره السّياسي الذي يبدو شديد الاضطراب، وكأننا نقرأ وعياً مستمراً بالمعاصرة، وشيئاً من الإسقاط، ولكنه يبقى مع ذلك ضرباً من ضروب التقدير، كوننا مرتهنين إلى حقبة الرواية، وإطارها الزمني، ولكن هذا لا يحول دون إطلاق عنان التأويل للبنية السردية، ومحكياتها.

تتميز الرّواية التاريخية بأنها تنطوي إلى حد ما على نوع من الجدل والتناقض، فالتاريخ لطالما كان متنازعاً عليه من قبل عدة أطراف، ولكن مع وجود إرث استعماري فإن هذا يتخذ وضعاً مأزوماً، وبوجه خاص عند الروائيين في المستعمرات السّابقة؛ ولهذا فإن الدّخول إلى المناطق المتنازع عليها، سيكون أمراً خطيراً، وخاصة مع وجود ماضٍ متوتر، وبالتحديد الماضي الاستعماري، ولكن ثمة ما يضاف إلى هذا التوتر، ونعني وجود الماضي المحلي بين أطراف تقع في الفضاء الجغرافي عينه، وهكذا فلا جرم أن تتخذ رؤية التاريخ عدة وجهات نظر، أو قراءات متعددة في ضوء السّياق الزمني، والذي ينهض على مصالح ذاتية جمعية، بالإضافة إلى بناء فضاء من الجغرافيا التي تتصل بالبعد الاستعماري، فالمنطقة تبدو لنا في مجال للتنازع ينبغي السيطرة عليه، وإحكام القبضة عليه من وجهة نظر الإمبراطورية التي تهدف إلى المحافظة على مصالحها التجارية والاستراتيجية في المقام الأول :

«إن هذه المنطقة حيوية بالنسبة إلينا، إنها شريان الحياة الذي يجب ألا نخسره، هل تعي ما أقول يا بني؟(آل محمود، ٢٠١١: ٣٢)

إنّ كتابة الرواية التاريخية قابلة للوقوع في أخطاء منهجية تاريخية، وهنا لا بد أن يشك القارئ بالكاتب ومصداقيته، ومن هنا، فلا عجب أن يبرر الكاتب عبد العزيز آل محمود هذا الأمر من حيث الرغبة بتجاوز هذه الهنات، فيلجأ إلى مصادر تاريخية في سرد رواية «القرصان»، وهنا نقع على قيمة التنازع في هذه الرواية من حيث الاستناد إلى الأرشيف البريطاني الذي شكل أحد نقاط النقد من لدن «محمد عبد الرحيم كافود»؛ حيث يصف هذا الأرشيف «أرحمة» بأنه قرصان، في حين أن موقف الكاتب عينه من هذه الشخصية يبدو في مجال بيني، فهو لا يحسم الأمر، ويترك الأمر لحكم القارئ، ويتأكد ذلك من خلال تصريح المؤلف حول سؤال إذا ما كان «أرحمة بن جابر» قرصاناً أم مقاوماً للاستعمار؟

حيث يرى بأنه ليس هذا، وليس ذاك، إنما الأمر يتحدد باختلاف النظر تبعاً للمنطقة ، أو بمعنى آخر الجماعات التي تنتمي إليها تلك المناطق تبعاً للتحولات أو التحالفات التي تقود الفعل.

ولعل هذا يعدّ مجالاً لخلق تداخل بين تمكين البعد الجغرافي، وما يتبعه من تصوّر تجاه الشّخصية مثل الأحداث عينها. وبناء على ما سبق، فإن المسار السّردي للرواية يكاد يقيم جدلاً أو فعلاً واضحاً من التّنازع على هذه المروية عبر أفعال من التّعديل بداعي ابتناء مرويّة جديدة حيث يحاول أن يقيم «آل محمود» نوعاً من الحياد السّردي، فهو لا يتورط أيدولوجياً بمقدار ما يتورط فنياً في مغامرة سردية تتملكها الصّعوبات لمحاولة دمج التّاريخ، ورؤيته في البنية المتخيلة. وكما نعلم فإن روايات جرجي زيدان كانت تهدف إلى تقديم التاريخ بصورة ممتعة حكائية بهدف دفع القارئ إلى شرك القراءة، ومن ثم تطورت هذه الاستراتيجية لتحقيق أهداف أخرى، منها إعادة النظر في التاريخ، أو تحقيق مقولة تعليمية أو إسباغ منظور أيديولوجي ما، وبناء على ذلك فربما تتضح وظائف الكتابة السّردية التاريخية؛ وهكذا يمكن القول بأن رواية القرصان تعمد إلى جعل هامش التاريخي يتصل اتصالاً بنيوياً بسند تخيلي من أجل أن يخفف من أثر الإحراج السياسي، ولهذا يصف أحمد عبد الملك بأن «آل محمود» لم يكن يسعَ إلى خلق إلماع أو إسقاط محدد لواقع أو حاضر ، وإن كنا لا نتوافق على هذا بصورة كلية تبعاً لطبيعة النص التي تعمد إلى تقديم تصور للعالم في تلك الحقبة، على الرغم من إمكانية قراءته في ضوء التنازع المستمر، وثقل الأثر الاستعماري، والتنازع الإقليمي.

ومن هنا، يمكن القول بأن ثمة مجالات كثيرة من الإضافات السردية التي يجعلها الروائي في سياق مفهوم الهوية السّردية، أو ذاك القدر من المتخيل، مع أن الرّواية لا تحفل كثيراً بتعليقات واضحة أو جلية إنما هي تنشغلُ بالحدث وتطوير المشهدية والبناء الدرامي، في حين تترك فعل الاستبطان الإيديولوجي على عاتق القارئ، ولكنها تضعه في مستويات من الإشارات التي تسعى للموازنة بين التصريح، كما الخفاء الرمزي القائم على هامش المُغامرة السردية.

أطياف النّموذج ما بعد الكولونيالي

ثمة تمحور واضح حول تكريس النّموذج ما بعد الكولونيالي في الرواية، ولكن ليس هناك من مواقف إنما هي أفعال من الشّرح السارد ضمن إفادة النص أي توجهات لبعث فعل دلالي أو موقف باستثناء التقنية السردية في هذه الرّواية التي تبنى على مفارقة سيمائية تتخذ من فكرة المهمة البريطانية مركزاً من أجل أن تحافظ الإمبراطورية على مصلحتها الاقتصادية، وبذلك تعدّ المهمة في سياق تمثيل النموذج الكولونيالي حيث تتخذ أوضاع الإمبراطورية البريطانية، ورغبتها للسيطرة دافعاً للمغامرة الاستعمارية. ولعل هذا يستجيب إلى المنظورات الاستعمارية التي تتمحورُ حول القيمة الحضارية للفعل الإمبريالي، حيث تبرز قضايا التبشير، ونقل المعرفة، وغير ذلك من المسوّغات التي تبدو غير مباشرة التكوين في رواية «القرصان» - وإن كانت لا تتبرأ من الإشارة إلى بعض التّمثيلات التي تتسم بتصوير العربي أو سكان المنطقة، وأثر الثقل الاستعماري على الشعوب، أو المنطقة- فالرواية تحفل ببعض الإشارات لهذا الجانب، وإن حضرت في صيغة سردية تستندُ إلى وظيفة تفسير التاريخ تبعاً لهذا المنطق أو المنظور الأيديولوجي، كما يتضح من حوار القائم بين شخصيات كل من: القبطان والقنصل وشخصية السيدة «جيسي» التي تقول: «إن الشعوب المستعمرة يا سيدي القبطان تبدع حين تعيش في أجواء من الحرية، وحين تكون أكثر تسامحاً مع الآخرين، وحين يكون نظام الحكم جزءاً لا يتجزأ من الشعب الذي يحكمه، وحين يكون العدل منتشراً، وما إن يحصل أي اختلال في المعادلة، فإن الشعوب تفسد، وتتبنى صفات لم تكن موجودة بها من قبل، وما إن تختل المعادلة حتى يصعب إعادتها إلى توازنها مرة أخرى، وأظن أن كثيرا من الشعوب قد اختل توازنها بسبب تدخل المستعمر في حياتها بطريقة أو بأخرى» (آل محمود، ٢٠١١: ٤٣).

وتحفلُ الرواية بتاريخ المنطقة الدّاخلي والتّنازعات والاختلافات بين نماذج تتوحد فيما بينها تاريخياً وثقافياً ودينياً، غير أنّ لعبة السّياسة والمصالح والمطامع تعلو على كل شيء، في حين أنّ بريطانيا تفيد من هذه التناقضات، وهذا يؤطر في سرد مشهدي يقترب من النموذج السينمائي القائم على محورية المغامرة، وهي تقنية ظهرت في أفلام سينمائية كثيرة تهدف إلى سبر أغوار الجغرافيات الأخرى أو تلك تقع تحت هيمنة الرجل الأبيض (الغربي)، إذ يلاحظ بأن الفضاء الجغرافي يمثلُ مركزاً من مراكز المتلفظات الأيدولوجية لقراءة جدلية المنطقة التي تقع ضمن مجالات الرغبة بالهيمنة تبعاً لأهمية الموقع الجغرافي الذي يتحكم بالملاحة والتجارة منذ قديم الزمان، فلا عجب – إذن- أن تتحول المنطقة إلى بؤرة للصراع بهدف محاولة السيطرة على تلك المواقع، غير أن هذا يقودنا إلى تبرير مواقف «أرحمة»، وغيره من الذين سعوا للسيطرة على هذه المواقع انطلاقاً من رفض الاستغلال الاقتصادي لاستراتيجية المكان، فأمام هذه الحملات المتعددة، والرغبة بالسيطرة كان لا بد من اتخاذ هذا النهج، وهكذا فإن ثمة رغبة في السرد من أجل عكس تكوين هذا التنازع، كما التوتر السردي الجدلي الذي نراه ماثلاً في بنية الرواية، ولا سيما أثر البحث المعرفي في النماذج الاستشراقية، حيث نقرأ في الصفحات (٦٣-٦٤) إشارات واضحة لهذا الموقع انطلاقاً من عمق التاريخ، كما يأتي على لسان القبطان «لوخ» الذي يقوم ببحوثه الخاصة التي تتصل بموقع المنطقة، وتاريخها بدءاً من حملة الملك الأشوري «سنحاريب» لمحاربة القراصنة، في حين يشير أيضاً إلى محاولة وصول «الإسكندر المقدوني» إلى ميناء البصرة سنة ٣٢٠ قبل الميلاد، كما يستكمل «لوخ» تتبعه لهذه الحملات آتياً على ذكر حملة الملك الفارسي (سابور) بين عامي (٣١٠ و٣٧٩م) لقمع السّيطرة، ومن ثم جاء «فاسكو دي غاما»، وما تبع ذلك من سيطرة البرتغاليين على تجارة التوابل لمدة ٣٠٠ عام، وما صحب ذلك من عنف تجاه سكان المنطقة، ولكن هذا لا يكاد ينتهي، أو يُنجز حتى يظهر الهولنديون في أواخر القرن السادس عشر، ومن ثم يأتي دور «شركة الهند الشرقية»، والقوى الاستعمارية بكافة

أطيافها، فلا جرم إذن أن يوصف الخليج بأنه أشبه بقدر يغلي (آل محمود، ٢٠١١: ٦٤).

المستوى السباق يمكن تنزيله على قراءة معاصرة لواقع المنطقة، فلا عجبَ أن يُقرأ حضور السّيف (موضوع الصراع) في المتن السردي ضمن دلالة رمزية، أو معادل موضوعي، ربما يحيل إلى التاريخ أو القوة، أو الرغبة بالسيطرة على فضاء جغرافي مسكون بالصراع، والتجاذبات لا تنتهي كونها سريعة التّحول، فالسيف الذي أرسله الحاكم البريطاني لإبراهيم باشا - قائد الجيوش المصرية- أشبه برشوة من أجل التحالف مع البريطانيين للقضاء على الحركة الوهابية، ولكن سرعان ما يحصل «أرحمة» على السيف عندما سيطر على السفينة التي كانت تحمله:

«كانت العملية مؤلمة وقاسية، تناثر الدم في أنحاء السفينة من صراخ الرجل وكثرة حركته، وأرحمة يستعجل رجاله في إنهاء العملية، أما «سادلر» والقبطان فقد كانوا ينظرون إلى صاحبهم وعيونهم تدمع، وصراخهم يعلو مع صراخه طلباً للرحمة له. كان أرحمه مصراً على الحصول على السيف مهما كلف الأمر، وبعد أن خيط نصف فم المساعد، صرخ «سادلر» بيأس: سأعطيك السيف، سأعطيك السيف» (آل محمود، ٢٠١١: ٧٢)

يلاحظ في سياق البناء السردي ذلك الاحتفاء في تتبع سير السفن، والتوقف عند كل ميناء، ومنه موانئ: مسقط، والبحرين، وشبه جزيرة قطر، وغير ذلك من موانئ المنطقة، وكأن الرواية تتصل بمحاولة تعميم شكل الفضاء المتنازع عليه، وأن يعني ذلك امتداداً لكل منطقة جغرافية من حيث سخونة الأحداث، ولكنها من جهة أخرى فإن هذا يتصل بتقديم ما تتوافق عليه نظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي من حيث أهمية (التمثيل) Representation فيما يتعلق بتمثيل الشعوب الأخرى، أو تلك الشعوب التي تقع في وضع طباقي مع النموذج الاستعماري، فنقرأ في مجال خطابي زمن توقف السفينة في ميناء مسقط لتبدأ مشاهدات السيدة «جيسي» وزوجها القبطان، بالإضافة إلى العقيد جون لهذا المكان، حيث تتعين المشاهدة (بصرياً وخطابياً) أثناء مسير العقيد «جون»:

«عندما مرت مجموعة من الرجال العراة الذين تسترهم قطعة قماش لفت على وسطهم وتصل لركبهم، ولهم شعور طويلة مجدولة تصل إلى أكتافهم، أما عيونهم فقد كانت سوداء واسعة مصبوغة بالكحل، ويحملون سيوفهم في جرب معلقة على أكتافهم، وبأيديهم دروع مزينة بمسامير كبيرة من الحديد» (آل محمود، ٢٠١١، ٧٧).

وفي موقع آخر نقرأ قيمة معيارية تتصل بالحكم على الآخر تبعاً لموجهات استشراقية كامنة تكاد تتحول إلى نسق خطابي يتأتى من لدن الخطاب الكولونيالي:

«سيدي إن هؤلاء من بدو الداخل، وهم أميون متخلفون لا يعرفون شيئاً، وهم في مسقط غرباء مثل غربتك أنت، وهم يعيشون منعزلين ومقطوعين عن العالم» (آل محمود، ٢٠١١،٧٧).

ولعل هذا التمثيل ينطلق من تمثل جغرافي في الأساس، فالعمق الذي يأتي منه هؤلاء الرجال كلما كان داخلياً بدا أبعد ما يكون عن الحضارة، مما يعني بأن الآخر يقع في جملة من التّحديدات الثقافية التي تنهضُ على منطلقات كامنة في الوعي الغربي، غير أنّ الرواية لا تكتفي بحمل تلك التمثيلات إلى فضاء القارئ، إنما هي تسعى لأن تقيم منظورها الطباقي في تبادل تمثل الخبرات، والتمثيلات المقابلة لكل طرف تجاه الآخر:

«التفت غولاب إلى لوخ، وقال: نحن في منطقة التجار، وهؤلاء هم أهل مسقط وسكانها الأصليون، ولم يعر هؤلاء موكب القبطان لوخ اهتماما كثيرا، فقد كانوا يرمقونهم بنظرة ثم يبتعدون عنهم بنوع من الاشمئزاز، لاحظ غولاب ذلك، والتفت إلى لوخ قائلاً: إنهم شعب فخور بنفسه يا سيدي، ينظرون إليكم على أنكم مجرمون قتلة، كما تنظرون إليهم أنتم. ولمعت أسنان غولاب بابتسامة خبيثة» (آل محمود، ٢٠١١: ٧٨).

وتلعب الكتابة أو (استراتيجيات الخطاب) دوراً محورياً في توصيف الوجهات السردية، فثمة تمحور حول الكتابة من وجهة نظر ما بعد كولونيالية بغض النظر عن موضوعيتها، وهي سمة تتواتر في الكتابة ما بعد الكولونيالية، ونعني مذكرات «سادلر» التي تشكل وجهة نظر أيدولوجية، وهي تعنى بتلك المهمة الكولونيالية التي يقوم بها رجل أبيض في فضاء المستعمرات حيث تتخذ من نموذجها الخطابي صورة للتعبير عن الآخر، فالرحلة إلى الداخل أو إلى العمق نحو المستعمرات تنطوي على بعد وظيفي يتمثل بإظهار القوة، ولكن ضمن وضع مخاتل حيث تتقنع بمهمة الإنقاذ كما يرى إدوارد سعيد في كتابه الثقافة الإمبريالية (سعيد، ٢٠١٤: ٩٣)، فلا عجب أن تحمل قدراً كبيراً من الفظائع، وهذه يبدو انعكاساً للشخصية المركزية في رواية «جوزيف كونراد» التي حملت عنوان« قلب الظلام» كما يحلل مؤلف كتاب «الثقافة والإمبريالية»(سعيد،٢٠١٤،٩٣)، وهي المهمة عينها أو تلك الصّيغة التي ما تفتأ تعيد التّصورات الغربية التي تنطلق من وجود شخصية (أوروبية) تقتحم الأهوال في مهمة محددة ينبغي تحقيقها بأكبر قدر من الاتقان، وهي تستند أيضاً إلى أهداف واضحة تخدم القوة الاستعمارية.

ولعل ما سبق يجعلنا نستعيد أفق إدوارد سعيد في تحديد هذه العلاقة الجدلية، وتداخلها بين فضاءات تقع في سياق التاريخ، كما تستند إليه بشكل جلي في جغرافية، وزمن محددين، غالباً ما يحملان الكثير من المواجهة والصراع، كما عدم الحسم أو الإرجاء، ولا سيما فيما يتعلق بحقيقة القيم، ومنطقية الحدت تبعاً لاختلاف وجهات النظر، بيد أنه في رواية «القرصان»، ثمة مشترك يؤكد بأن الوجود الاستعماري لم يجلب معه سوى الخراب والدمار، علاوة على الفوضى والاضطراب، ولعل هذا يشي بأجواء يمكن أن نعثر على شبيه لها في رواية الكاتب النيجيري «أتشينو أتشيبي» بعنوان «الأشياء تتداعى» حيث ينهار عالم القرية الآمن في إحدى القرى الإفريقية مع قدوم الرجل الأبيض الذي جاء بادعاءات التّبشير بالمسيحية، وجلب الحضارة.

في المرجعية التاريخية تبدو شخصية «أرحمة» نموذجاً يصف فعل التمرد عبر رفض التوقيع على الوثيقة التي وافق عليها معظم شيوخ الخليج، وبناء على ذلك، فإن موقفه هذا يتطلب تدخلاً

عسكرياً استعمارياً؛ ولهذا فإن وسائل الاستعمار هي عينها التي ينبغي تطبيقها، في حين أن ثمة حملات معرفية تهدف إلى تحصيل أكبر قدر من المعرفة من خلال شخصيات تقوم بدور استخباراتي، ومنهم «سادلر»، وهكذا فثمة إشارات تشي بقيمة المعرفة في اكتناه الآخر لتسهيل السيطرة عليه، وإن بدا في الرواية ناشزاً كونه لم يُستثمر بشكل جيد، ولاسيما الحوار الذي دار بين القنصل البريطاني والضابط الإنجليزي المكلف بالحملة للقضاء على «أرحمة» بهدف تسهيل عملية التجارة والسّيطرة على الطرق التجارية للمحافظة على مصالح شركة الهند الشرقية، وفيها يصرح القنصل بأهمية اكتساب أكبر قدر من المعرفة عن هؤلاء السكان للتمكن من السيطرة عليهم، كما جاء في الحوار الذي دار بين «سادلر» والحاكم البريطاني الذي يسرد جملة من المعلومات التي تتصل بالمنطقة، ومنها معلومات تتعلق بمحمد بن عبد الوهاب، ومنطقة نجد، وقيمتها التي تتصل بالسيّطرة على المنطقة، وما صحب ذلك من تحركات لكبح جماح الحركة الوهابية، والحيلولة دون سيطرتها على المنطقة.

إن ما يهمنا تلك الموجهات المعرفية لإبقاء حركة التجارة بمعزل عن هذه التجاذبات، ولكن الأداة تتصل بنموذج معرفي مدروس بعناية، وهنا يصرّح الحاكم قائلاً:

«اسمع لما سأقوله لك يا بني، إن أمامك مهمة سرية بالغة الخطورة، سيتوقف مستقبل التجارة البريطانية في هذه المنطقة على مدى نجاحك في إنجازها» (آل محمود، ٢٠١١: ٣١).

سلطة المعرفة

في رواية «القرصان» تحضر المعرفة، وتعالقها البنيوي مع السّيطرة، وتعني في المنظور ما بعد الكولونيالي القوة التي تتيح بقاء السلطة، وهكذا فثمة تضافر بين هذين المكونين في الخطابات الكولونيالية، بيد أن هذا يحضر في المكان الذي تبدو الرواية في متنها الأكبر معنية بتتبع الكثير من تفاصيل عمليات «أرحمة بن جابر»، وعلاقاته التي لا تتخذ طابعاً مطرداً، أو نمطاً واضحاً مع غيره من الأطراف التي كانت تمتلك المكان، وتسعى لأن تقيم وجودها بمعزل عن قوة هذا الرجل، وخلفيات ماضيه بما يحمله من توتر على أكثر من مستوى، وهذا ما جعل الرواية تستهلك متناً ضخماً – ربما- أسهم هذا الأسلوب من ناحية فنية بتضخمها، علاوة على تشتيت المركز الدلالي في بعض الأحيان.

ومن أجل التأكيد على الجدل ما بعد الكولونيالي نستعين برواية أخرى للكاتب عينه بعنوان «الشراع المقدس» (آل محمود،٢٠١٤)، وفيها قدر أكبر من الوضوح الذي يتصل بعمل العملاء الاستعماريين الذي ينبغي أن يتحقق بسرية تامة من حيث العمل على جمع أكبر كمية من المعلومات عن تجارة البهارات بين الهند، وبلاد العرب، ومن ثم نقلها إلى أوروبا، وهنا تبرز مفردات أو تعبيرات منها: الخرائط، ومعرفة اللغة العربية، والجهاد المقدس، والتبشير الحضاري، كما وضع الصّليب الخشبي على السفن لتقديم سند حضاري لهذه المهمة، ولكن هذا لن يتحقق ما لم يُلجأ إلى آليات الاستعمار المخاتل من حيث القدرة على اكتناه المنطقة، والانسياب المعرفي، مثل الانخراط في المناطق التي تُستهدف، وهذا يتماثل مع ما جاء في رواية «القرصان» حيث تلجأ الإمبراطورية إلى بعض الشخصيات كي تقوم بدور استخباراتي، وهنا نلاحظ التّمحور حول امتلاك المعرفة كي تكون مصدراً للقوة.

ويمكن القول بأن رواية «القرصان» تنتمي إلى نسق خطابي مختلط بين القيمة التاريخية والوظيفة الأيدولوجية، وعدة وظائف أخرى، غير أن الكاتب يجعل من هذا المسعى فاقداً للتدخل الأيديولوجي الواضح، أو المباشر، فهو يكتب ضمن الدرجة الصفر، إذ يحاول أن ينقل التاريخ ضمن وضعية متخيلة تعيد بعث هذا التاريخ، واكتشاف قيمه وجمالياته، والتأسيس لمرجعية تاريخية قومية، وبيان القيمة التاريخية لهذه المنطقة، فضلاً عن إبراز بعض أدوار الشخصيات، وبيان الأثر الاستعماري للإمبراطوريات، ودورها في هذه المنطقة.

خاتمة

نخلص في هذا البحث إلى أن السند التاريخي لرواية «القرصان» للكاتب عبد العزيز آل محمود يبدو في مجال حيوي ؛ حيث تتقاطع مستويات المرجعية التاريخية مع البنية المتخيلة، وبينها تكمن مستويات من التمثيل للواقع الأيديولوجي غير الخاضع لتفسير في متن المتخيل السّردي، إنما هو ينتقل إلى فعل قرائي يمارسه القارئ، ولكنه يُدعم بإشارات سرديّة تتصل بثنائية محورية أقمنا عليها بحثنا، وهي تعني بتوتر العلاقة مع التّجربة الاستعمارية التي تعمل في الخلف، وتجعل فضائي المكان والزمان مشحونين بجملة من التّنازعات التي يقع محورها في مواجهة تمثيلات خطابيّة تقوم بها الإمبراطوريات التي تلجأ إلى أداوت كما استراتيجيات بهدف إبقاء الهيمنة، كما قيادة هذا الوجود برمته ليكون ضمن مصلحتها؛ مما أضفى على بناء الشّخصية المحورية «أرحمة بن جابر» الكثير من الغموض في حسم الواقع الدلالي والتاريخي المرتبط بها.

المراجع

إبراهيم، عبد الله (٢٠١١). التخيل التاريخي: السرد والإمبراطورية، والتجربة الاستعمارية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ستالوني، إيف (٢٠١٤). الأجناس الأدبية، ترجمة محمد الزكراوي، بيروت، المنظمة العربية للترجمة

سعيد، إدوارد (٢٠١٤). الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت، دار الآداب.

صحيفة العرب القطرية: آل محمود: القرصان رواية خيالية تتضمن بعض الحقائق التاريخية. استرجع في ١٤ مارس, ٢٠٢٠, من

https://www.alarab.qa/story/157629/-آل-محمود-القرصان-رواية-خيالية-تتضمن-بعض-الحقائق-التاريخية

عبد الملك، أحمد (٢٠١٦). الرواية القطرية : قراءة في الاتجاهات، الدوحة، كتارا.

لوكاش، جورج (١٩٨٦). الرواية التاريخية، ترجمة صالح جواد الكاظم، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة.

آل محمود، عبد العزيز (٢٠١٤)، الشراع المقدس، الدوحة، دار بلومزبري – الدوحة، مؤسسة قطر للنشر.

آل محمود، عبد العزيز (٢٠١١). القرصان، دار بلومزبري- الدوحة، مؤسسة قطر.

المراجع الأجنبية

Abrams, M. h. (1999). A glossary of literature terms, Heinle & Heinle, Boston.

Baldick, Chris. (2001) The Concise Oxford Dictionary of Literary Terms , Oxford University Press ,New York.

Guerin, Wilfred, L. (2005) A Handbook of Critical Approaches to Literature. Oxford University Pre